1

النساء .. هل هُنَّ السلاح السري في الحرب الحديثة؟

إن الأشكال والوجوه الآتية من الحروب في الشرق الأوسط، التي لا تزال تطاردنا في بداية القرن الواحد والعشرين هي صور نساء. ولنستحضر التفجيريات الانتحاريات الفلسطينيات بداية بوفاء إدريس في يناير 2002، أو أَسْرِ وإنقاذ الجندية جيسيكا لينتش في بداية الغزو الأمريكي للعراق بعد ذلك بأكثر من عام، أو الصور الصادمة للجندية ليندي إنجلاند وسابرينا هارمان SPC في سجن "أبي غريب" في الربيع اللاحق. إن هذه الصور والقصص تفزعنا، ولكنها تدهشنا؛ لأنها تظهر شابات يقمن بالقتل والتعذيب. إن قصصهم حسبما انتشرت في وسائل الإعلام تُحْدِث إحساسًا بالصدمة والارتباك، يظهر في التقارير العديدة المتعارضة لمعنى دخول النساء ساحة الحرب. وقد أشعلت تلك الصور الجدل، وصاحب ذلك خلط كبير فيما يخص النسوية ومساواة النساء، وكما ورد في وسائل الإعلام، فإن سرد قصصهن كان الشائع فيها ذلك الاتجاه المتضارب المبهم نحو النساء اللاتي صُوِّرْنَ مرة أخرى بوصفهن مصدر خطر، فهن الآن يمثلن أسلحةً هجوميةً ودفاعيةً معًا، وهذا التمثيل من أعراض المخاوف القديمة قِدَمَ الدهر من قوى النساء "الغامضة"، ومن الأمومة والطبيعة الجنسية الأنثوية. وحتى عندما يبدو أن حضور النساء يشير إلى "تحررهن" من التقاليد الذكورية، وبلاغة الخطاب

obeikandl.com

الـذي يحيط بضلوعهـن فيها، يكشف الارتبـاط القابع بين النسـاء والشهوة الجنسية والموت. وربما ظننا أننـا تجاوزنا هذه الصورة المريبة للنساء، ولكن التمثيلات الإعلامية لدور النساء الحديث في الحرب يقول شيئًا آخر.

كانـت الأمريكيات في الماضي يخدمن خلف الخطوط الأمامية بوصفهن ممرضـات في كوريـا وفيتنام، بـل كن يقـدن الطائرات الحربيـة في الحرب العالميـة الثانيـة، ولكن فكرة عمـل الجنديات في ساحات القتـال جديدة على الشعـب الأمريكـي، فقد كان هـؤلاء النساء مـن الناحية الفنية يـوكل إليهن تسليم الحاويات وإمدادات القـوات العسكرية. ولكن غياب التعريف الواضح "لخطـوط العـدو" في العـراق جعل النسـاء يواجهن مواقـف قتالية بصورة منتظمـة، فقد كانـت النساء محاربـات نشطات في دول أخـرى، وعلى سبيل المثـال، اشتهـرت بعض النازيـات بتعذيـب المعتقلـين اليهـود في معسكرات الاعتقـال والاعتـداء عليهم. فهناك إليسا كوخ التـي عرفت (بداعرة معسكر بوخينفالت) فقد اشتهرت بالتجول في المعسكرات على ظهر حصان تبحث عن أشـكال وشم جذابة على أجساد المعتقلين يمكنهـا أن تحولها إلى ساتر لضوء المصباح مصنوع من جلد بشري(1). كما خدمت النساء في الجيش السوفيتي في الحـرب العالمية الثانية. ويروى أن مذكـرات الجنود الألمان تشير إلى أنهم كانوا يخشون نساء الروس أكثر من رجالهم، وكانوا يرفضون الاستسلام لهن خوفًـا من العواقب. وفي أثنـاء حكم بينوشيه في تشيلي، قـال بعض المعتقلين: إن "النسـاء كـن الأسـوأ" من بين معذبيهـم" (2). يقول سكـوت جونسون، بعـد أن قص عددًا من هذه الحكايات: إن "مثل هـذه القصص تعيد الحياة إلى صـور الأمازونيـات، وأسطورة كون النساء أكـثر وحشية من أشد الرجال وحشيـة" (3). وبينما النساء، كما هو واضح، قادرات على أشنع أنواع الإيذاء

والتعذيب، فإن أسطورة كون النساء أشد وحشية من الرجال تستمر اليوم مع قصص النساء اللاتي يقمن بأعمال التعذيب والاستجواب في العراق[4].

إن أقبح صور الاحتلال الأمريكي للعراق هي صور النساء الضالعات في أعمال الاعتداء. وعلى الرغم من أن صور هؤلاء المراهقات اللاتي يبتسمن بينما يمارسن الاعتداء على سجناء "أبي غريب" صور صادمة، إلا أنها مألوفة لنا بدرجة ما نتيجة قرون من الأدب والفلسفة والتاريخ والدين، وفي العصر الحديث نتيجة السينما والتليفزيون، التي تصور النساء مصادر خطر، ولا سيما فيما يتعلق بالجنس. إن ازدواجية العذراء - المومس التي استبعدت الجسم الأنثوي عبر التاريخ من المجال الاجتماعي أو السياسي - ازدواجية مشهورة، فلقد صورت النساء إما على صورة العذراء البريئة أو المومس القذرة، وتتحول الواحدة إلى الأخرى في المخيلات بسهولة.. فالعذراء تستخدم براءتها للإيقاع وللخداع، وتنقذ المومس ذات القلب الذهبي الرجل المنهك من حياته المملة.

وفي حالة "أبي غريب" فإننا نرى فتيات تبدو عليهن البراءة يقمن بتعذيب الرجال وهن لاعبات. هذه الصور قبيحة؛ لأنها تستحضر كلاً من الغريب والمألوف، أو نقول المألوف داخل الغريب. ففي مقالته "الغريب"، يصف سيجموند فرويد الغريب بأنه unheimlich، وتعني داخل البيت وخارجه في آن واحد. فالأشياء الغريبة لها طبيعة مزدوجة وجه مألوف يخفي خطرًا غامضًا، أو الداهية الشرير الذي يبدو مألوفًا. فالمزدوج أو الطيف(*) هو ما يبدو وما لا يبدو في آن واحد. إن هذه المنطقة المشتركة بين الخير والشر هي ما يسبب لنا الإزعاج، فأغرب الصور عند فرويد صورة الأم؛ لأنها ترتبط

(*) صورة إنسان ترى في حياته نذيرًا بموته. (المترجم).

بالحياة وبالموت معًا، وتحمل معها الوفرة أو الغذاء، وخطر منع الغذاء[5]. إن قوة منح الحياة لدى الأم هي ذلك المزدوج الغريب، هي الوجه الآخر الغريب لخطر الموت الذي تملكه.

يشير تحليل فرويد إلى أحد أحلامه في كتابه تفسير الأحلام إلى هذه الصلة، ولهذا دلالة كبيرة. ففي فصل "المقادير الثلاثة" يذهب فرويد إلى فراشه مرهقًا وجائعًا، فيحلم بامرأة داخل مطبخ تصنع الزلابيا وتقول له: إن عليه الانتظار، ولكنه نافد الصبر، فيحاول أن يرتدي معطفه ويمشي، ولكن المعطف طويل جدًا، وله حواف من الفراء غريبة مطرزة، يبدو أنه لرجل آخر. ويرى فرويد في تحليله أن المرأة التي تصنع الزلابيا هي أمه، ويبدو له هذا الحلم كتحقيق أمنية إشباع الحاجة الأساسية للغذاء والحب التي يدّعي أنها تجتمع في ثدي الأم. ولكنه في تحليله هذا سرعان ما تتحول صورة الأم في حلمه، والمرتبطة بالحب والغذاء، إلى رسول للموت؛ إذ يربط فرويد حركة يد الأم عند صناعة الزلابيا بإحدى خبرات طفولته، عندما علمته أمه أن كل الناس يموتون ويعودون إلى التراب، وذلك بأن حكت يديها معًا كأنها تصنع الزلابيا لتريه "فراكة الجلد الأميل إلى السواد التي تنتج بالاحتكاك، كدليل أننا مخلوقون من التراب"[6]. وليس في حلم فرويد وحده بل داخل الثقافة الذكورية عمومًا، تمثل الأم رمز الغذاء المانح للحياة (الزلابيا)، وكذلك حتمية الموت والعودة إلى الأرض (الأم).

يمكن تفسير الأم في حلم فرويد باستخدام عمل آخر من أعماله، وهو "موضوع الصناديق الثلاثة"، حيث يتحدث فرويد عن ظهور ثلاثة نساء جميلات يرتبطن بالاختيار والموت في الأدب والأسطورة، بوصفهن أوجه المرأة الثلاثة - الميلاد والجنس والموت - وهي حتمًا تخص الأم: "يمكننا

القـول: إن مـا يمثّل هنـا هو العلاقـات الحتمية الثـلاث التي تربـط الرجل بالمـرأة – المرأة التي تحمله، والمرأة التـي تتزوجه، والمرأة التي تدمره، أو أنها الأشكال الثلاثة التي تتخذها صورة المرأة في مسار حياة الرجل – الأم نفسها، والمحبوبـة المختارة على نمطها، وأخيرًا الأرض الأم التي تستقبله تارة أخرى. ولكـن الرجل الكبير يتـوق بلا طائل إلى حب المرأة، كما حظي به أول مرة من أمـه. وإن ثالثـة المقادير وحدها، وهي آلهة الموت الصامتـة هي التي ستأخذه بـين ذراعيها"[7]. إن الميلاد والجنس والمـوت يتكثف ثلاثتهم في صورة المرأة، وبالتحديـد الأم بوصفها خطـرًا ثلاثيًّا مطلقًا. إن آراء فرويد في النساء تشير إشارة مهمة إلى خصائص آراء أو نظرات ثقافته في النساء بوجه عام.

تبدو نظريات فرويد عـن المرأة قد عفا عليها الزمن حاليًا، بل متعصبة جنسيًّـا، ولكـن التمثيـلات الحديثـة للنسـاء كأسلحـة حربية تشـير إلى أن الارتباطـات بـين النسـاء والجنس والموت لا تـزال قوية كما كانـت. وأقوم في هـذا الفصل بدراسة طـرق تصوير النساء على أنهـن أسلحة حرب هجومية ودفاعيـة، وفي حالة سجون أبي غريب وخليـج جوانتانامو تحديدًا تم التطابق بـين النساء والجنس، أما طبيعتهن الجنسيـة، فلم تصور بوصفها سلاحًا في الإعـلام فحسب، بل استخدمت سلاحًـا في يد الجيش. ويقول بعض المعلقين: إن مجـرد وجـود النساء في الجيش، يحول المشهـد إلى ملحمة جنسية، إن ما يفترض من قـوة فيما يوصف بالطبيعة الجنسية الخطـيرة يمكن أن يسيطر عليـه العسكريـون "لترويض" و"تليين" غـير المتعاونين مـن السجناء. وإن استخـدام ما ادّعي أنه دم حيض في استجـواب السجناء في خليج جوانتانامو لـه دلالة خاصة، فـإن الثقافات الذكورية كانت دائمًا تُعَـدُّ دم الحيض نجسًـا ومقززًا. وتستخدم هذه الصـورة المرذولة لدم الحيض سلاحًا حربيًّا، فلسنا

نفترض أن سجناءنا المسلمين وحدهم سيشعرون بالنجاسة عند التعرض لدم الحيض، بل إن ثقافتنا نفسها وخطاب الجنود والإعلام الذي يروي هذه الأحداث يَعُدُّ دم الحيض نجسًا ومقززًا. إن تحليل فرويد للآثار الكريهة للأم وللأعضاء الجنسية الأنثوية أو الجنس علينا يمكن أن تساعدنا على فهم اتجاهنا المختلط نحو دم الحيض؛ لأنه يرتبط بالحياة، وقوى منح الحياة، وبالخوف، وربما بالخوف من الموت، وربما يساعد على تشخيص سبب وكيفية فهم الطبيعة الجنسية الأنثوية وحضور النساء، وكيف تستخدم من جانب العسكريين كأحد تكتيكات الاستجواب.

وسأدرس في هذا الفصل مختلف الأساليب التي صورت النساء المشتركات في الحرب في الشرق الأوسط على أنهم أسلحة حربية ترتبط بالموت، ولأن النساء والجنس الأنثوي والطبيعة الجنسية الأنثوية قد صُوِّرت بصورة الخطير والمميت، فينبغي ألا نندهش الآن من ارتباط النساء بعدد من أشد فظائع الحرب. إن ما يجعل اشتراك النساء في الحروب غريبًا، من أبي غريب وخليج جوانتانامو حتى التفجيرات الانتحارية الفلسطينية، هو ذلك الاتجاه المختلط نحو النساء والطبيعة الجنسية الأنثوية. أما صعوبة استيعاب أن هؤلاء الفتيات من جيراننا يمكن أن يكن بهذا العنف فترتبط ارتباطًا كبيرًا بالصور النمطية للأنوثة والطبيعة الجنسية الأنثوية. وإضافة إلى ذلك الاتجاه المختلط نحو النساء الذي يظهر في مجازات النساء كأسلحة، يأتي اتجاه مختلط آخر نحو الحركة النسوية التي تحمَّل في آن واحد المسؤولية عن إطلاق هذه الحرب العدوانية الكارهة للرجال، وتستخدم مبررًا لغزو الدول الإسلامية واحتلالها لتحرير النساء. ومثل الارتباطات بين النساء والموت، فإن هذا التكييف الانتقائي للنسوية ولحرية المرأة ومساواتها له تاريخ طويل، وكان لقرون جزءًا لا يتجزأ من المشروعات الاستعمارية.

obeikandl.com

النسوية تعذيب

تشير صاحبة العمود الصحفي عضوة النقابة كاثلين باركر إلى أن الانتهاكات التي جرت في سجن أبي غريب هي نتيجة لما تسميه "أسطورة المساواة بين الجنسين"[8]. إن صور ضلوع النساء في التعذيب والاعتداء الجنسي في أبي غريب أعادت إشعال المناظرات حول السماح للنساء بدخول الجيش، وحول مساواة الجنسين، كما أشعلت جدلاً حول دور الحركة النسوية، وليس ذلك في استجابة للصور، بل استجابة لعمليات الاعتداء نفسها. فالكتّاب على جانبي الفاصل النسوي يفترضون مسؤولية للنسوية عن سلوك النساء الإجرامي في أبي غريب. وعلى سبيل المثال، فعلى الجانب المعادي للنسوية نجد موقع MensNewsDaily.com يشير إلى أن سادية النساء ليست مسؤولة عن أبي غريب فحسب، بل عن المبدأ نفسه: "لن تجد كل الإناث المتورطات في أبي غريب صعوبة كبيرة في إيجاد وظائف في VAWA (قانون العنف ضد النساء) الذي تبلغ ميزانيته بلايين الدولارات، وهو المرتبط بصناعة العنف الداخلي، وذلك بمجرد أن تقوم "الحركة النسوية الأمريكية للعدل بين الجنسين" بتبرير كل أفعالهن المشينة. ويقول كاتب عمود في صحيفة أمريكان سبيكتاتور إن الاعتداء في أبي غريب "هو تطور ثقافي تفرع عن ثقافة نسوية تشجع الهمجيات"[10]. وقد نسب بعض الصحفيين المحافظين مسؤولية التعذيب إلى الحساسيات النسوية للنساء، مشيرًا إلى أن المعتديات كن يمقتن الاتجاه الإسلامي للرجال نحو النساء، ومن ثَمَّ كن يستمتعن بما يعتبرنه انتقامًا نسويًّا من السجناء[11].

بينما ينسب المحافظون إلى النسوية الوحشية التي مورست في أبي غريب، فإن من النسويات من يربط بين خطوات اتخذتها حركات النساء

بهـذه الاعتداءات. وعلـى سبيل المثال، تخلص كاتبة العمـود جوان بلاك إلى أن "النســاء في التاريخ كله كن يظهرن أنفسهن قادرات على إساءة استخدام السلطـة وارتكاب الوحشيـة كالرجال تمامًا كلما سنحـت الفرصة، كل ما في الأمـر أنهـن لم يجدن الفرصـة قبل الآن. وعالجـت الحركـة النسوية ذلك، وأحزن كل من ظن أن الحال قد تحسن أن يجد النساء قد أثبتن أنهن مساويات للرجـال"[12]. وتلقي بروك وارنر بالمسؤولية على عـالم ما بعد النسوية، حيث "للشابات الأمريكيات اتجاه ما ينطق بعبارة "أنا أستحق ذلك"". وتدّعي أن "الوقاحـة والثقة والأنانية مبـادئ"، وأن "ثقافة العسكرية الأمريكية تروِّج لهـذه القيم، كمـا يفعل النظام الجامعـي، على الرغم مـن أن الجيش يظهر نفسـه بصـورة الفحولة البدنيـة لا الفكريـة"[13]. فالنسويـة إذن متورطة في الاعتداءات حسب رأي الجانبين؛ لأنها أعطت النساء الفرص المكافئة لفرص الرجال، وجعلتهن أكثر ثقة – إلى درجة أن النسوية قد صنعت نساء عنيفات.

يفسر بعض علماء الحركـة النسوية وبعض الصحفيين هذه الاعتداءات بالإشـارة إلى المكانـة الهامشية للنساء في الجيش الـذي يهيمن عليه الذكور، ممـا يجعلهن أقرب إلى اتبـاع الأوامر والسعي إلى التكيف، وكذلك أقرب إلى جعلهـن مثل كبش الفـداء، وجعلهن ممثلات لـكل أفراد جنسهـن. ويبدو أن ذلك ينطبق على النســاء الثلاث المدانات حسبما صورتهن الصحافة. ويقول المحافظون، على الجانب الآخر: إن التدريب الأساس المختلط هو المسؤول عما سمـاه أحد المعلقين "سلوك المواخير" في أبي غريـب[14]. ويسأل المعلق نفسه: هـل كان جنود الشرطة في أبي غريب ضعافًا في مهـارات العمليات الأساسية "ذلـك أن السياسيـين ونشطاء النسوية ذوي الرتـب العسكرية هم الذين أنشأوا التدريـب الأساس المختلط منذ عشر سنوات، لنشر خرافة أن الرجال

والنساء سواء، وأن وضع الشابات في مقار مغلقة مع الشبان لن يطلق الغرائز البيولوجية الطبيعية؟" - التوكيد مضاف -[15].

تربط كثير من التعليقات المحافظة عن انتهاكات أبي غريب النساء بالجنس تصريحًا أو تلميحًا. على مستوى التصريح، نرى تعليقات عن كون النساء مسؤولات عن إثارة الغرائز الجنسية، وأن وجود النساء يؤدي إلى "سلوك المواخير". ولكن صور النساء المبتسمات في أثناء ضلوعهن في الاعتداء الجنسي والتعذيب السادي، كما تقول سوزان سونتاج، هي ضمنًا مألوفة من صناعة S & M الإباحية التي تزدهر على الإنترنت، ولها شعبية بين الجنود، التي اعتادت وضع النساء في دور المسيطر[16]. ولطالما قال أنصار النسوية: إن شيوع البورنوجرافيا (المواد الإباحية) يشجع على انتشار صور الجنس العنيفة، وتفقدنا حساسيتنا للعنف الجنسي. وربما كان فقدان الحساسية لهذا النمط من العنف الجنسي يبرر جزئيًّا حيرة جماعات حقوق الإنسان الأولى في تصنيف تلك الاعتداءات.

كما تؤدي الصور النمطية للجنسين دورًا في الخلط المتعلق بصور الاعتداء تلك، ليس فقط لأن النساء هن المعتديات، بل لأن الرجال هم من يقع عليهم الاعتداء الجنسي. ومن المهم أن نذكر أن الرجال المقصودين رجال تعرضوا لتمييز عنصري، إذ اعتدت عليهن نساء بيض. وإننا لنعلم بالطبع أن هناك سجينات عراقيات تعرضن للاعتداء والاغتصاب، ولكن هذا الأمر معتاد إلى درجة أنه لم يجذب مخيلاتنا بالدرجة التي حققتها صور النساء اللاتي تنتهك أعراض الرجال. ويجعلنا ذلك نسأل: كيف يمكن أن يُغْتَصَبَ رجل على يد امرأة؟ وكيف يمكن إرغام رجل على الأداء، ومن ثَمَّ يكون أداة لأفعال جنسية؟ يشير هذان السؤلان إلى افتراضاتنا بشأن الرغبة والجنس والنوع،

obeikandi.com

وإن هــذه الصور النمطية المتعلقــة بالنوع هي التي جعلت الوجوه المبتسمة لكل مـن ليندي إنجلانـد وسابرينا هارمان بهذا القدر مـن "القبح" – فكلاهما مفـزع وكريه، وفي الوقـت نفسه مدهش وآسر. تصف المحللـة النفسية جوليا كريستيفا الشيء القبيح بأنه "الشيء الذي يستدعي إعادة النظر في الحدود؛ إذ إنه يمثـل خطرًا باستخدام منطقة مختلطة تستعصي على التصنيف، بيد أن هــذه المنطقة المختلطة المشؤومة هــي التي تجذبنا إلى القبيح. ويذكّر ذلك بالنظر إلى قتيل على الطريق السريع بينما نقود السيارة؛ إذ ننظر إلى الجثة رغمًـا عـن أنفسنا، هذا هو رد فعلنا على الصور الآتيـة من أبي غريب، فإنها تنفّرنـا، ولكننـا لا نملـك إلا أن ننظر، نشعـر بالفظاعة ولكننـا نريد أن نرى المزيد، وقد كانت أغرب الصور وأصعبها تصنيفًا هي صور النساء الضالعات في الاعتداء وهن يبتسمن للكاميرا.

استخدام الجنس الأنثوي تكتيكًا

يقـال أيضًا: إن النوع يؤدي دورًا في فعـل الاعتداء نفسه؛ إذ يدّعي بعض الصحفيين أن النســاء استخدمن "كأسلحة قاتلة" ضد السجناء العراقيين. وكمـا يقـول صحافي في صحيفة بالتيمـور صن: كان إرغـام الرجال في ثقافة إسلامية أصولية على السير عرايا (فضلاً عن تمثيل أفعال جنسية) في وجود نسـاء يُعَدُّ نوعًا قاتـلاً واستثنائيًّا من الإذلال[17]. ويشير هـذا التقرير إلى أن وجـود النساء في سجن أبي غريب كان يتيـح أشكالاً من الانتهاك أشد إذلالاً، يفترض أنها تستخدم "لتليـين" السجناء قبل الاستجواب؛ فالنساء أصبحن الوسيلة لتعقيد الانتهاك الجنسي والبدني، وكذلك لانتهاك المعتقدات الدينية والثقافية، وذلك بسبب جنسهن وما يبدو أنه الأثر "الطبيعي" على الرجال.

obeikandl.com

كذلك فإن لحضور النساء أثرًا "مليِّنًا" للتعذيب نفسه، يجعله أكثر قبولاً لدى عموم الشعب الأمريكي. فكما ساعد خطاب تحرير الأفغانيات على جعل عملية الغزو أكثر قبولاً لدى عموم الشعب الأمريكي، فإن إبراز اشتراك النساء في أبي غريب وجوانتانامو يساعد على إعادة تعريف التعذيب ليكون اعتداء أو سوء سلوك أو انحرافًا أو "سلوك مواخير" أو "مزاجًا سمجًا" أو "تنفيسًا" كما سماه راش ليمبو. فقد تم تعريف جريمة أدرجت ضمن بنود معاهدة جنيف المناهضة للتعذيب لتكون "قوة شرعية" في الحرب ضد الإرهاب. تحدث وزير الدفاع دونالد رامسفيلد عن انتهاكات أبي غريب قائلاً: "لست محاميًا، ولكنني أعلم أنها ليست تعذيبًا - فالأرجح أنها "اعتداءات". (*) وأعاد محامو البيت الأبيض ووزارة الدفاع تعريف التعذيب، فوسعوا حدود الألم المسموح به[18]. وكان أحد آثار اشتراك النساء في الاعتداء المصمم "لتليين" السجناء هو "تليين" الرؤى الشعبية للتعذيب. فالبث التليفزيوني المتأخر ليلاً وتقارير الإنترنت عرضت استجابة شعبية لتقارير عن نساء يخلعن ملابسهن لاستجواب سجناء في جوانتانامو، وقد تمنى الرجال أن تعتدي عليهن النساء بهذه الطريقة.

يسمي مورين دوود كاتب العمود الصحفي في صحيفة نيويورك تايمز هذا الموقف "مزيج سام من الجنس والدين"[19]. وفي هذا لعب على التداعيات التقليدية بين النساء والسم، ولكنه يستخدمها في سياق الحرب. ويبدو أن هذا "المزيج السام" جزء من إستراتيجية العسكريين في الاستجواب في خليج جوانتانامو، حيث يحتجز مئات السجناء من أفغانستان وغيرها لما يزيد على أربعة أعوام حتى الآن. كان الرقيب إريك سار يعمل مترجمًا في سجن خليج

(*) استخدمت المؤلفة الكلمة نفسها abuse لتعني الاعتداء والانتهاك ولزم تغيير المقابل في العربية بحيث تكون دلالة استخدامها لدى رامسفيلد أخف "اعتداءات". (المترجم)

جوانتانامو، وقد ألف كتابًا (بالاشتراك مع فيفكا نوفاك) يصف فيه أساليب "الاستجواب" المختلفة التي تستخدم هناك بأنها تتجاهل معاهدة جنيف. ولكن إحدى جلسات الاستجواب اجتذبت الناس بصورة خاصة، فقد كانت جلسة في منتصف الليل قامت فيها المستجوبة بفتح أزرار زيها "كأنها في عرض تعري" وحكّت "ثدييها" في ظهر السجين، وبعدها "وضعت يدها داخل سراويلها" ومسحت دم حيض كاذب في وجه السجين[20]. يقول سار "لو جاءني أحد قبل أن أذهب إلى جوانتانامو وقال لي: إننا نستخدم النساء لتعذيب المحتجزين جنسيًا في الاستجوابات من أجل قطع صلتهم بالله، ربما قلت: إن هذا الكلام يبدو معقولاً، ولكنني مقتُّ نفسي حين خرجت من تلك الغرفة، على الرغم من أنني كنت متأكدًا إلى حد بعيد من أننا نخاطب حثالة في الداخل هناك"[21]. فما معنى أن يوصف "العدو" بالحثالة، وأن يستخدم دم الحيض سلاحًا حربيًا؟

في يناير من عام 2005م، قبل نشر الكتاب، تم تسريب تسع صفحات من مخطوطة كتاب سار، التي كانت تحت يد البنتاجون، إلى الصحافة. وتصف تلك الصفحات كيف تستخدم المستجوبات "اللمس الجنسي" و"الملابس المثيرة" (منها التنانير القصيرة ومشدات الصدر والملابس الداخلية الشبكية - الكاشفة -) و"دم الحيض الكاذب"، "لكسر" السجناء المسلمين بجعلهم غير طاهرين، ومن ثَمَّ "غير قادرين على الصلاة". وكان هناك خطاب مرفقًا مع هذه الصفحات من مسؤولين في جوانتانامو فيه فقرة مطلوب حذفها تصف سجينًا سعوديًا تم تلطيخ وجهه بحبر أحمر خرج من سراويل مستجوبته التي قالت له: إنه دم حيض. وقد أشّر المسؤول على الفقرة بكلمة "سري"، منبهًا البنتاجون إلى أنهم يكشفون "طرق وأساليب استجواب سرية للغاية"[22].

فهل نستخلص من هذا أن دم الحيض قد اكتسب دورًا في الحرب بوصفه جزءًا من أسلوب استجواب سري للغاية؟ وعلى الرغم من غرابة هذا الأمر، فينبغي ألا نندهش منه، ذلك أن دم الحيض في الثقافات الذكورية من كل لون يمثل شيئًا كريهًا ونجسًا. وربما يصوَّر دم الحيض على أنه خطر؛ لأنه يثير المخاوف من قوى النساء المبدعة، قوة الحياة التي لا سبيل للرجال (أو النساء) للسيطرة عليها سيطرة كاملة. وترى كريستيفا أن دم الحيض داخل الثقافات الغربية يستحضر الجسم الأمومي بوصفه جسدًا غريبًا، وخطرًا مطلقًا على الاستقلال الفردي، فالجسم الأمومي - كما تصفه - هو المكروه المطلق بسبب ارتباط الرضيع الغامض به، وصعوبة الانفصال عنه. فالرضيع، الذكر خاصة، يجد جسم الأم خطيرًا ومدهشًا في آن واحد، ولهذا فهو يتخيل امتلاكه وتدميره معًا[23]. وحتى في الثقافات الغربية التي تَعُدُّ نفسها "متحررة"، لا يعد دم الحيض عمومًا موضوعًا ملائمًا للفن أو للحديث. فدم الحيض صادم، والثقافة الشعبية عمومًا تتجنبه تمامًا. أما فيلم "ساوث بارك" حيث يقول رجل لآخر: "إن حيوانًا ينزف مدة خمسة أيام ولا يموت لأمر غريب" فهو استثناء كاشف.

أعلنت الفيلسوفة أنجيلا ديفيز في إحدى المقابلات الشخصية معارضتها القول: إن هذه الأشكال من الاعتداءات مصممة خصيصًا لانتهاك المحرمات الثقافية للمسلمين الرجال: "أرتاب دائمًا عندما تستخدم الثقافة كإستراتيجية أو إجابة؛ لأن الثقافة أعقد من ذلك كثيرًا. ويكشف تفسير المثقفين لهذه الأشكال من الاعتداءات مفهومًا شديد التفاهة عن الثقافة. فلماذا يفترض أن الرجل غير المسلم الذي تقترب منه امرأة في صورة جلاد تحاول أن تلطخه بدم الحيض سيتصرف على نحو يختلف عن الرجل المسلم؟ فهذه الافتراضات عن الثقافة عنصرية في حد ذاتها"[24]. وحتى رواية إريك

سار نفسها تنبئ عن مدح الذات لرفضه أساليب الاستجواب العسكرية، وتشير إلى أن استحضار دم الحيض - دون غيره من "أساليب" يصفها - جعله يشعر "بعدم الطهر". ويصف خبرة اغتسال بعد جلسة الاستجواب فيقول: "لم يكن في كوبا كلها ماء ساخن يكفي ليجعلني أشعر بالنظافة.. جلست في حوض استحمامنا القذر، وتركت الماء الساخن يضرب رأسي، وكان البخار يثقل الهواء بينما كنت أبكي. وجلست على هذه الحال نصف ساعة، وبعدها رقدت على الفراش، أحملق في السقف فقط، فقد كان الشعور بالعار يطارد النوم"[25]. هذه هي المرة الأولى في وصفه لاشتراكه في انتهاكات مختلفة في جوانتانامو التي يذكر فيها سار شعوره بعدم النظافة، ويذكر البكاء. فقد أخذ سار الحمام الذي هددت المحققة السجين بالحرمان منه. وحتى حين يشير إلى رعبه من استخدام دم الحيض الكاذب تكتيكًا في الاستجواب، يظهر وصف سار بوضوح مشاعر الاشمئزاز لديه ليس من الجيش فحسب، بل من منظر دم الحيض أيضًا.

على الرغم من أن تليفزيون آخر الليل وجد كنزًا من النكات في موضوع المحققات ذوات الملابس الشبكية الكاشفة اللاتي «يعذبن» السجناء، فإن دم الحيض الكاذب لم يتوافق مع صورة S&M للمرأة الجلادة. وعلى سبيل المثال، يقول نكروما شاباز ستيوارد في موقعه على الإنترنت تحت عنوان "تجاور المختلف": "بالطبع كنت أستمتع قبل أن نصل إلى دم الحيض. فقبل ذلك، كان الأمر يبدو مثل رقصة تعري وتلاصق رائعة... لا حيلة لي فأنا رجل... وأعتقد أن عليَّ أن أعترف؛ لأنني أستمتع بمسألة "النساء ذوات السلطة"؛ لأن ذلك يبدو مثيرًا بالنسبة لي"[26]. وعلى الرغم من أن دم الحيض ليس وحده الذي يوضع في فئة سوائل الجسم "الكريهة" في المخيلة العامة، لكنك لا تراه

obeikandi.com

في أفلام هوليوود المليئة بنكات القيء والسائل المنوي ومشاهد دورات المياه (ولو ظهر، فلك أن تتخيل التحول الذي كان سيطرأ على جِل الشعر الخاص بماري في فيلم "شيء ما عن ماري"). إن استخدام العسكريين دمَ حيض كاذبًا في الاستجواب يظهر الخوف المتصور من عملية الطمث في الثقافات الذكورية، ولا سيما ثقافتنا. يظهر هذا الخطر المتخيل صراحة عندما يصير جزءًا من ترسانة من "التكتيكات الجنسية التي يستخدمها العسكريون".

يصف سار "استخدام" العسكريين الأمريكيين "النساء جزءًا من تكتيكات الاستجواب البدنية والنفسية الأقسى لدفع المشتبه بهم الإرهابيين إلى الكلام"[27]. فقد رفض أحد الضباط المسؤولين عن السجن، وهو المقدم جيمس مارشال، أن يقول: هل كان العسكريون الأمريكيون يستخدمون النساء عمدًا كجزء من إستراتيجيتهم العسكرية. ولكن طبقًا لوثيقة مصنفة سرية حصلت عليها وكالة أسوشيتد برس، فإن الجيش يستخدم "فريقًا من النساء فقط بوصفه إحدى وحدات الرد الفوري، التي تخضع السجناء المزعجين في زنازينهم"[28]. كما اشتكت وكالة FBI (مكتب التحقيقات الفيدرالي) من "التكتيكات الجنسية" التي تستخدمها المحققات. وكما ورد فإن "بعض سجناء جوانتانامو الذين أفرج عنهم قالوا: إنهم تعرضوا للتعذيب على يد عاهرات"[29].

عندما كُشفت هذه القصة وبعدها بأشهر عدة، لم تُعِرْ وسائل الإعلام اهتمامًا كبيرًا للاعتداء الجنسي والديني في جوانتانامو، باستثناء تقرير وكالة أسوشيتد برس الذي أعده بيسلي دودز. ولكن المتوافر كاشف؛ إذ يصف الاعتداء "باستخدام النساء الجنس لدفع المحتجزين للكلام"، أو استخدام "النساء الفحش بوصفه تكتيكًا استجوابيًّا" أو "التعذيب المشحون بالجنس

على يد محققات" و"استخدام الجاذبية الجنسية الأنثوية تكتيكًا"[30]. وكان عنوان إحدى المقالات في مجلة تايم يقول: "توحي تقارير جديدة عن إساءة معاملة المحتجزين في جوانتانامو بأن المحققات استخدمن الجنس سلاحًا"[31]. ويستخدم خطاب النساء على أنهن أسلحة على نحو أكثر صراحة في تقارير جوانتانامو من تقارير أبي غريب. ومن الأشياء الدالة على ذلك استمرار وسائل الإعلام في الربط بين النساء والجنس حتى قيل: إن الجاذبية الجنسية الأنثوية في ذاتها سلاح. فهنا تصير تكتيكات الاستجواب المصبوغة بالجنس بدائل اختزالية للطبيعة الجنسية الأنثوية كلها. فتختزل هذه الجاذبية الجنسية الأنثوية في مجرد تكتيك أو إستراتيجية "لكسر" الرجال، إلى سلاح خطر يمكن استخدامه ضد أشد الرجال مقاومة.

هذا الاختزال الذي يراوح بين تكتيك الاستجواب والسلاح الحربي واستخدام الجنس والجاذبية الجنسية الأنثوية الذي يظهر خوفًا قديمًا من النساء والطبيعة الجنسية الأنثوية - له دليله في الخطابات الأدبية والعلمية والشعبية للثقافة الغربية، ويمتد عمره قرونًا. كما أن ألفة الربط بين النساء وجنسهن بالتعذيب والأخطار المميتة هي ما يجعل هذه التقارير بهذا القدر من الغرابة. وإن ربط الطبيعة الجنسية الأنثوية بالخطر ليستدعي وصف فرويد لخوف الأخصاء الذي يفترض أن يثار لدى الرجال عند رؤية الأعضاء الجنسية الأنثوية، فإن هذه الأعضاء الأنثوية، فيما يرى فرويد، لا تجسد خطر الإقصاء فحسب، بل خطر الموت نفسه، فالجنس الأنثوي - الأمومي بالتحديد يصور بوصفه مانحًا للحياة ومدمرًا في آن واحد، ومن ثَمَّ فهو غريب، أي صادم ومألوف معًا"[32].

إن الصور القادمة من أبي غريب والتقارير الواردة من جوانتانامو عن النساء اللاتي يعذبن الرجال بالجنس صادمة، ولكنها مألوفة لدينا من صور هوليوود عن الأنثى القاتلة التي تستدرج الرجال وتقودهم إلى حتفهم. وهي مألوفة كذلك بسبب الصور الإباحية للمرأة الجلادة السادية الماسوكية التي تمسك بسوط أو حزام، ونظيراتها في هوليوود: المرأة القطة وإليكترا وملائكة تشارلي، والمنتقمات النسويات الكاذبات اللاتي يستخدمن الجنس والعنف لاستدراج الرجال وقتلهم. وعلى الرغم من أن صورة البطلة النسوية الخارقة التي تأخذ ثأرها من الرجال الذين سيطروا عليها صورة جريئة نسبيًّا فإن صورة الشهوة الجنسية الأنثوية بوصفها فاعلة وقوية ومميتة مثل شهوة عنكبوت الأرملة السوداء جزء من مخيلتنا الثقافية منذ قرون - ولنذكر شخصيات أسطورية مثل ميدوزا وجوكاستا، أو شخصيات توراتية مثل سالومي ودليلة وجوديث.

في الخطاب الذي دار حول أبي غريب وجوانتانامو أشارت وسائل الإعلام إلى ما وصفته "بالمزيج السام"، ولكن يبدو أن ذلك المزيج ثلثاه جنس أنثوي وثلثه الأخير النسوية التي أطلقته مع منحى ديني زاد من غرابته أن الجنس الأنثوي يمكن أن يستخدم للتلويث والتدنيس؛ لأنه ينظر إليه بوصفه نجسًا، وليس داخل الإسلام المحافظ وحده (كما تصوره وسائل الإعلام الغربية)، بل داخل الجيش الأمريكي والمخيلة الثقافية الأمريكية عمومًا. ففي سياق التمثيلات الثقافية الشائعة من هوليوود حتى الإعلان التجاري، يمثل الجنس الأنثوي بصورة قبيحة، فهو مفزع وساحر في آن واحد، مثل صور أبي غريب، وهو كذلك كريه وصادم، ولكننا لا نستطيع أن نرفع عيوننا عنه.

تقول سوزان سونتاج في الوقت نفسه: إن الصور تجعلنا نشعر بالخجل، ومع ذلك بها سمة خالية من أثر أي خجل: "فالجنود يقفون للتصوير ويرفعون

obeikandl.com

إبهامهم قبل الفظائع التي يرتكبونها، ثم يرسلون الصور إلى أصدقائهم. إن أسرار حياتنا الخاصة التي كنتَ في السابق مستعدًّا لأن تفعل أي شيء لتخفيها، صرتَ الآن تتهافت على أن تُدعى إلى برنامج تليفزيوني لتكشفها. إن ما تدل عليه هذه الصور هو ثقافة اللاخجل، وتدل بالقدر نفسه على إعجاب سائد بالوحشية الفجة"[33]. وكما سنرى فإن هذه الفجاجة وانعدام الخجل مع المظهر بادي البراءة بل المرح الذي يبدو على الجنود الشباب الضالعين والضالعات في الاعتداءات، هو جزء لا يتجزأ من ثقافة تُعْلِي قدرَ السذاجة. من المفترض أن ألوان الاعتداء كافة قد ارتكبها الحراس الرجال في حق السجناء ذكورًا وإناثًا في أبي غريب وغيره من السجون الأمريكية، ولكن الصور التي استولت على عقولنا هي صور النساء الضالعات في اعتداءات جنسية. والاستثناء الوحيد هو صورة سجين أبي غريب المغطى رأسه والواقف فوق صندوق فاتحًا ذراعيه وموصلاً بأسلاك كهربائية، وهي صورة تستدعي صورة صلب المسيح. وخلافًا لهذا التخريج، ترى دانا كلاود أن "صورة العراقي المغطى رأسه وهو واقف فوق صندوق يمسك بأسلاك قيل له: إنه لو تركها سيصعق، تبدو محاكاة لصورة النساء المحجبات في أفغانستان"[34].

إن هذه "الصور هي نحن"، كما تؤكد سونتاج، ولكن ليس لأننا لا نخجل وتعجبنا الوحشية، بل لأن النساء، والطبيعة الجنسية الأنثوية بالتحديد تمثل على نحو ما الشيء الخسيس والخطير. إن ذلك الربط بين النساء والجنس والعنف هو ما يجعل هذه الصور انعكاسًا غريبًا لثقافتنا. إضافة إلى هذا، إذا كانت هذه الصور "هي نحن"، كما ترى سونتاج، فليس ذلك لمجرد أنها صور "الفتاة التي تعيش في المنزل المجاور" الضالعة في الاعتداءات، وليس كما تقول: لأن هؤلاء الشباب والشابات يتعرضون دائمًا للعنف والبورنوجرافيا السادية الماسوكية المنتشرة في الإنترنت، بل لأن هؤلاء الجنود الصغار جزء من

تاريخ له جذور عميقة في العنصرية والتمييز الجنسي يسبغ الجاذبية الجنسية والدناءة معًا على الأجساد الأنثوية والسوداء؟ والبنية. وبتعبير هازل كاربي:

يشبه الجنود الصغار في صور أبي غريب تلاميذ المدرسة الثانوية في أول رحلة لهم خارج الوطن، يتعمدون الابتسام وهم يعلنون لأهل البلد أنهم وصلوا، ويؤكدون لأنفسهم أنهم الأعلى، وأنهم يملكون حق السيادة. وفي أثناء ذلك يقولون "هاي" لأمهاتهم في الوطن. يمكن أن يكون هؤلاء سياحًا أمريكيين في أرض خيالية فيها أجساد أسبغت عليها جاذبية جنسية، فصارت وسيلة تعبير وتفعيل للرغبات العنصرية، التي لا يمكن تحقيقها إلا في مناطق الالتقاء بالآخر، ومن الخطأ تصديق هذه البراءة الظاهرة؛ لأن الغزاة اختلقوا صورة الشعوب التي يتوقعون ملاقاتها، وعززوا تلك الصورة مرة بعد مرة في نصوص شعبية شائعة[35].

وعلى الرغم من أن كاربي تخاطب ببصيرة ثاقبة العنصرية الموروثة في أفعال وفي صور أبي غريب، إلا أنها لا تقر بالتمييز الجنسي الذي يغذي دور النساء وصورهن في تلك الصور. وكما رأينا، فإن الصور النمطية للنساء بوصفهن خطيرات ومثيرات جنسيًّا بطبيعتهن، تؤثر في الأحداث، وتوجهها كما توجه تأويلنا لها. أما "البراءة الظاهرة لهؤلاء الجنود والجنديات الصغار، فمسألة معقدة بالقياس إلى معنى البراءة وقيمتها في الثقافة الأمريكية الحديثة، وهو موضوع سأعود إليه في الفصل الأخير.

المساواة في حق القتل "إنهن أشد فتكًا من الذكور"

تتضمن تقارير ضلوع النساء في الاعتداءات خلطًا كاشفًا بين خطاب التكتيك والأسلوب والسلاح وخطاب الغرائز والطبيعة الجنسية الأنثوية.

obeikandi.com

وينطـوي هذا الخطاب على مفهـوم كون جنس النساء سلاحًـا فتاكًا بصورة خاصة؛ لأنه "طبيعي". ففي الخطاب الشعبي يمكن استخدام أجساد النساء ودم الحيض والجاذبية الجنسية الأنثوية تكتيكاتٍ حربيةً بسبب قوة ارتباطها بخطـر الطبيعة أو قُلِ الطبيعة الأم، كيفما شئت. ويصلح جنس النساء، شأنه في ذلـك شأن السـم الطبيعي أو المادة المخدرة، سلاحًـا ماضيًا؛ لأن مخيلتنا الثقافيـة تـراه خطـيرًا "بطبيعته"، ولكنـه يصبح أشد خطـرًا؛ لأننا نتصور إمكانيـة أن تستعملـه النساء للسيطرة على الرجـال، يمكن أن يتحول إلى فن للغواية يمكـن للنساء به خداع الرجال وتخديرهم حتـى يسيطرن عليهم، بل يدمرنهم - ولنذكر مرة أخرى صورة النساء القاتلات في هوليوود.

هذا المزج بين خطابي التكنولوجيا والطبيعة في تصوير النساء على أنهن سلاح يصـل إلى مستوى أعلى في التقارير الإعلاميـة البريطانية والأمريكية عن التفجيريات الانتحاريات الفلسطينيات. يصف تقرير إخباري في صنداي تايمـز اللندنية تكـرار التفجيرات الانتحاريـة النسائية فيبـدأ قائلاً: "إنهن مجهولات يرتدين الحجاب، ولكن عندما يخرجن ليقتلن ربما يتخفين بإرسال شعورهن على شكل ذيل حصان مع ابتسامة جميلة... كابوس إسرائيل الجديد: إن التفجيريـات الانتحاريات أشد فتكًا من الانتحاريين"، ويواصل الصحفي فيصفهـن "بالسلاح السـري" الفلسطيني، ويقـول: إن مدربيهن يصفونهن "بالقنابـل الدقيقة البشرية الفلسطينيـة الجديدة"[36]. وكما ورد فإن أحد قـادة الجهاد الإسلامي يشرح ذلك قائلاً: "اكتشفنا أن نساءنا يمكن أن يكنّ ميزة يمكن استغلالهـا... فقد صارت - أجساد النساء - أقوى أسلحتنا"[37]. وتوصـف أجسـاد النساء في هـذا التقريـر "بالأسلحة السريـة" و"الأسلحة القويـة" و"القنابل الدقيقـة البشرية" و"وسيلة قتال الآلـة الحربية". مرة

أخرى، تمزج صورة القنبلة الدقيقة البشرية بين خطابي التكنولوجيا والطبيعة لإنتاج ما تسميه التايمز "تفجيريات انتحاريات أشد فتكًا من الذكور". إن هذا التوتر الذي يحدث بين التكنولوجيا والطبيعة، القنابل والأجساد، قابل للانفجار في ذاته. فتلك النساء التفجيريات الانتحاريات يجسدن هذا التوتر؛ لأنهن يعدن الجسد الأنثوي والأمومي إلى مجال السياسة فتبدو أجسادهن في حالة ازدواج غريب: الجسد والسلاح.

إن الاستشهاديات، شأنهن في ذلك شأن النساء الضالعات في أبي غريب، يربكن الافتراضات الخاصة بالجنس أو النوع، بل يبرزن التداعيات القديمة بين النساء والموت. فصور شابات في التاسعة عشر والعشرين يعذبن آخرين أو يقتلن أنفسهن يذهلننا بذلك التجاور بين الحياة والموت، والجمال والبشاعة. ولنقارن ما تسميه التايمز "شعرهن الذي على شكل ذيل حصان" و"ابتساماتهن الجميلة" بوصف سابرينا هارمن "ابتسامة فريق التشجيع النسائي" أو وصف ليندي إنجلاند "الابتسامة المرحة - الجريئة" و"قَصَّة الشعر المرحة"[38]. إذا كانت صور تلك الشابات الأمريكيات تستحضر صور الفتيات المحبات للمرح - "حبات قلوب أمريكا" أو "قائدات فرق التشجيع" - فإن صور الاستشهاديات الفلسطينيات تصورهن على نحو مأساوي لا فكاهي، ماسوكي لا سادي، بجمال حزين لا مرح. فالشائع أن الاستشهاديات الفلسطينيات يوصفن بالجمال والطهر والفداء داخل المجتمعات الفلسطينية، تطبع صورهن على لوحات كبيرة وأيقونات صغيرة فيصرن مثالاً يُتطلع إليه. أما المحققات الأمريكيات فيصورن كمومسات أو عاهرات، وتصور الاستشهاديات كعذارى، مرة أخرى نرى الازدواجية القديمة: نساء يُصوَّرن كعذارى أو كعاهرات، ولكنهن خطيرات في الأحوال كافة.

هـؤلاء القتلة النساء يتركن لدينا، كالنسـاء المعتديات، سؤالاً ملحًا عن إمكانية المصالحة بـين مُثُل الشباب والأنوثة عندنا، أو الفتيات والنساء وهذه الوحشية. مع ذلك فإن حيرتنا وارتباكنا وسخطنا، كما يبدو في خطاب وسائل الإعـلام الشعبية هي أعراض "عودة المكبوتـات". فلقد كان هناك ربط بين النساء والجمال والقبح قرونًا، ففي سياق فلسفتنا وأدبنا وطبنا احتلت النساء مكانة العذراء والداعرة معًا. فقد صورن على أنهن يستخدمن الجنس سلاحًا للغوايـة، ويعد الأكثر فتكًا بسبـب ارتباطه بالطبيعة. فهنـاك دائمًا تصور ما لدينـا يجعـل "الشعر المعقوص على هيئة ذيـل الحصان" وقصَّـات الشعر والابتسامات من أبواب الغواية الخطيرة.

في كتابهـا "جيش الـورود .. داخل عالم التفجيريـات الفلسطينيات"، تخاطب باربرا صورة نمطيـة راسخة أو حقيقة بيولوجية لها انعكاساتها على حياتنا الوجدانية، فتنعي كون "أكثر جوانب عقيدة الموت غموضًا التي تغلغلت في المجتمـع الفلسطيني، وهي تخـص الاستشهاديات تحديدًا، هي تلك النقلة التـي تقوم بها كل امرأة من حاملـة للحياة إلى آلة للقتل"[39]. وخطاب فيكتور عـن التحـول من "حاملة للحياة إلى آلة قتل" يردد ذلك الانتقال من الطبيعة إلى التكنولوجيا، وهو ما يجعل صور تلك النساء بهذا القدر من الغرابة، فهي لا تفهـم كيف تتحول حاملات الحياة إلى آلات قتل. مع ذلك فالربط بين الأم والموت يبـدو محوريًّا لمخيلة ذكورية تكون فيها قوة حمل الحياة التي يتمتع بها النسـاء هـي نفسها سبب خطورتهـن تلك الخطورة البالغـة، فضلاً عن شدة غموضهـن. ومعظم تلـك النساء، حسب وصف فيكتـور عالقات بين ثقافتين، ولا ينتمين لأيهما، وليس لديهن سوى خيارات قليلة لكسب التقدير والقبول.

وقد قيل: إن أعمال التفجيريات الانتحاريات قد جعلت العديد من رجال الديـن المسلمين يعلنون أن النساء يمكن أن ينلـن الشهادة ويدخلن الفردوس

كالرجال تمامًا على الرغم من معتقداتهم السابقة التي تقول إن النساء لا يمكنهن نيل مرتبة الشهادة(*). ولكن تدريب النساء في الجماعات المحافظة يستلزم تخفيف القيود على حريتهن في الحركة، واتصالهن بالرجال من خارج العائلة. كما يعني تغيير القواعد الخاصة بما يرتدين وما يكشف عن أجسادهن، التي ينبغي ألا يراها الرجال حتى عند موتهن[40]. (**) (***) فبعد أن فجرت هبة الدراغمة ذات التسعة عشر ربيعًا نفسها بإيعاز من حركة الجهاد الإسلامي في مايو 2003م، قال أحد رجال الدين المهمين: إنها لم تحتج إلى محرم في طريقها إلى الهجوم، وإنها يمكن أن تخلع حجابها؛ لأنها "ذاهبة إلى الموت في سبيل الله، وليس لعرض جمالها"[41]. إن القيود الدينية الذكورية المحافظة على تحركات النساء تلين عندما يبدأ القادة في إدراك القيمة الإستراتيجية للنساء بوصفهن أسلحة حربية. ففي صباح السابع والعشرين من يناير من عام 2002م، وقبل ساعات من تفجير وفاء إدريس نفسها، وهي أول انتحارية، تحدث ياسر عرفات إلى النساء في مقر إقامته برام الله، وقال لهن: "إن النساء والرجال سواء... أنتن جيشي من الورود وسيسحق الدبابات الإسرائيلية[42](****).

ومثل المجازات المستخدمة لوصف حارسات السجن الأمريكيات، فإن صورة "جيش الورود النسائي الذي سيسحق الدبابات يظهر فصلاً غريبًا بين أجساد النساء الطبيعية المعروفة، وتكنولوجيا الحرب - الدبابات

(*) ما تقوله المؤلفة هنا لا يستند إلى أي دليل من الإسلام، ولا يُظن أن مسلمًا يقول بهذا. والمفارقة الكبيرة أن الشهادة في الإسلام بدأت بامرأة هي سمية أم عمار بن ياسر. (المترجم)

(**)(***) منهجها في التأويل منهج النزع من السياق وسوء التأويل والقص واللصق. (المترجم)

(****) تسحب المؤلفة مفهوم الشهيد المقدس المسيحي على الإسلام، وهذا جانب قصَّرت فيه، فهي بذلك تخلص للتراث الذي تنتقده (تراث الاستعلاء والجهل والعنصرية). (المترجم).

الإسرائيلية – التي للأجساد القدرة على سحقها. وتقف النساء على الحدود الخطيرة بين الثقافي والبيولوجي، جيشًا من الورود. يصرن زهورًا جميلة ولكنها ذات أشواك، زهورًا مسلحة بالقنابل القادرة على سحق تكنولوجيا الحرب الحديثة، فهن يمثلن قوة الطبيعة الخطيرة ضد التكنولوجيا الحديثة. واتساقًا مع الصورة النمطية للأجساد الأنثوية في أغلب الثقافات الذكورية، تمثل أجساد النساء الطبيعة، في حين تربط أجساد الرجال بالثقافة: الرجال يعالجون الثقافة، في حين لا تعالج النساء إلا أجسادهن، وعندما يفعلن ذلك تكون الخطورة سمة فيهن. ويرتبط النساء بالجسد في تاريخ الفلسفة وكلاهما مستبعدان من المناقشات الدقيقة للحق والعدل أو السياسة[43]. فالأجساد، وهي مرتبطة تراثيًا بالنساء، ضد العقل والنظام والدولة. فلا عجب أن تثير ظاهرة استخدام النساء أجسادهن بوصفها أسلحة هذا الارتباط الغريب الذي يظهر ويختفي في آن واحد داخل الثقافة المعاصرة.

هل أجساد النساء خطيرة؟

تقول الفيلسوفة الإيطالية أدريانا كافاريرو: إن التكنولوجيا في الغرب صارت معيارًا للتمييز بين العنف المشروع المقبول والعنف غير المشروع والمروع. ويساعد استخدام التكنولوجيا الغربية، على المستويين الحرفي والمجازي، على إخفاء دور الأجساد في الحرب، فالأسلحة التكنولوجية المتطورة تسمح للجيوش بإحداث دمار شامل بنسبة خسائر بشرية ضئيلة في صفوفها، إذ يسمح لما يسمى "الضربات الجراحية" بالتصويب الدقيق لتقليل عدد المصابين من أفراد العدو والمدنيين على حد سواء – على الرغم من أن هذه الضربات، كما نعلم، كثيرًا ما تخطئ أهدافها أو توجه إلى أهداف مدنية. وتدعي كافاريرو أن:

الجسد في ذاته، أو الجسد وحده تحول إلى سلاح قاتل، يظهر بخلاف ذلك بوصفه غير منتظم على الإطلاق، ويمكن القول: إنه لا ولاء عنده وغير شرعي وخائن. وهذا... يتوقف على فضيحة الأسلحة القاتلة التي تتكون من أجساد مجردة غير تكنولوجية. فالحق أن أي حزام ناسف منزلي الصنع لا يستلزم تكنولوجيا. وكما تدَّعي الانتحارية ريم صلاح الرياشي، فإن جسدها هو السلاح، جسدها هو الذي ينفجر إلى ألف شظية قاتلة. وهي لا تَعُدُّ جسدها أداة تحمل السلاح وتستخدمه، مثل الجندي الذي يحمل بندقية أو سيفًا، بل تنظر إلى جسدها بوصفه السلاح. وهذا غريب تمامًا على التراث الغربي فيما يخص الحرب. وهو تحديدًا يربك نوعًا من الحرب تهدف لتكنولوجيا فيها إلى إبدال الدور التقليدي للأجساد المحاربة وإخفائه وتحييده.

وتختتم كافاريرو بقولها: إنه في العرف السياسي الغربي "لا يسمح إلا للتكنولوجيا بامتلاك الموقف الشرعي الصحيح فيما يخص السلاح"[44].

يشير تحليل كافاريرو إلى أن الجسد، ولا سيما الأنثوي، وبالأخص الأمومي، يختلف عن التكنولوجيا في كونه مفزعًا حين يتحول إلى سلاح. ويبين عمل كافاريرو أن المجاز الغربي "الجسد السياسي" كان دائمًا يستبعد الجسد الأنثوي الذي يرتبط "باللحم والعرضية والصيرورة"، بينما تسبغ المثالية على الجسد الذكوري "المبني على صورة مجردة من التناسب والتوازن الكامل والاستقرار الدائم". ولأن المحاربين من الذكور - عرفًا، تقول كافاريرو إن "الأجساد الأنثوية التي تؤدي عمل الأسلحة تجعل الربط القديم البغيض بين السياسة والحرب يبدو غريبًا على نحو استثنائي، وذلك ليس من منظور نسوي فقط، بل من منظور الفكر السياسي التقليدي بصفة خاصة"[45]. مع ذلك، فبالنظر إلى الارتباط التقليدي بين الأجساد والنساء،

والارتباط الآخر بين أجساد النساء (وربما أجساد الأمهات خاصة)، والخطر، فعلى خلاف كافاريرو، فإن الأثر الكريه للانتحاريات ليس شاذًّا، بل إنه في الواقع، على نحو ما، ممثلٌ للخطر الأعظم المتخيل – الأمهات/النساء اللاتي يملكن السلطة على الحياة والموت.

إذا كان الأمر كما تقول كافاريرو "الأجساد المجردة، غير التكنولوجية، أو بالأحرى الطبيعية... تبدو غير شرعية وغير صائبة سياسيًّا" عندما تصبح أسلحة حربية ضد الأسلحة التكنولوجية التي تخفي دور الجسد في الحرب، فإن أجساد الانتحاريات لا بد أن تستثير الخوف من "الأجساد الطبيعية" على الأقل داخل المخيلة الغربية. ونظرًا للارتباطات التاريخية الموثقة بين الجسد والطبيعة والنساء، فإن الخوف من الأجساد الطبيعية عادة ما يثير الخوف من الأجساد الأنثوية أو الأمومية. بل إن أجساد الانتحاريات تُظهر للعيان التوتر القائم بين الأجساد والتكنولوجيا في المخيلة الحديثة، أي أن هذه الأجساد لا تبقى داخل عالم الطبيعة، ولكن معناها السياسي ينفجر في مشهد السياسة الغربية. ولا يكون الفزع من هذه الأجساد لمجرد ارتباطها بالطبيعة فحسب – كما تقول كافاريرو – بل أيضًا لأن هذه الأجساد تنسف تلك الصورة النمطية؛ لأنها تحول الجسد والحياة نفسها إلى أفعال سياسية. وسأعود في فصول لاحقة إلى مناقشة عقدة دور الجسد واتجاهاتنا نحوه بالعنف نحو أنفسنا والآخرين.

ولأننا نَعُدُّ الحرب مجالاً ذكوريًّا فإن اشتراك النساء في الحرب والعنف الوحشي سيبدو أمرًا غريبًا جدًّا. ولكننا في الوقت نفسه نظل نتصور أجساد النساء خطيرة بطبيعتها (كما يبين تحليلي خطابَ الإعلام حول المحاربات). إن هذا الربط الكامن بين النساء والخطر هو ما يجعل تجنيد النساء، فيما

يصفه غسان حاج بثقافة الانتحاريين "شديدة الذكورية والتنافسية" أمرٌ شديدُ الوقع والصدمة[46]. إن الانتحاريات ودهشتنا وارتباكنا في مواجهة هذا العنف يبرز الأسطورة القديمة التي تدور حول الأخطار الأصيلة في جسد الأم/الأنثى، الخطر الألصق بموقعهن المتداخل بين الطبيعة والثقافة من ارتباطهن بالطبيعة.

هناك أسباب عملية لتجنيد النساء في مثل هذه الأنشطة. ويناقش الصحفي كريستوف رويتر، في تأريخه للتفجير الانتحاري، معدلات الانتحاريات العالية بين نمور التاميل في سريلانكا، ويقول: إنهن يمثلن ما يقارب 60 في المائة من القوات الانتحارية. وهو يعزو ارتفاع معدل اشتراك النساء إلى "التحرر الحديث للتاميليات"، وإلى "كونهن مُنحن الحقوق نفسها والواجبات العسكرية مثل الرجال" - إلى تحرير النساء - والفاعلية العملية للتفجيريات. وفي الوقت نفسه الذي يثير فيه نقطة تحرر النساء فإنه يبعدها عن النسوية الغربية: "من المشكوك فيه جدًّا أن يكون لهذا المعدل المرتفع لاشتراك النساء في مهام التفجير علاقة بالالتزام بأي صورة من صور النسوية الغربية. والأرجح أن حركة LTTE - حركة تحرير نمور التاميل - وقادتها تحتاج إلى "دم جديد"، فقد مات كثير من التاميليين الرجال أو هاجروا، والقليل الباقون مطلوبون لمهام قتالية ضد القوات الحكومية. إذ يعد الرجال أصلح للقتال؛ لأنهم قادرون على السير مسافاتٍ أطول حاملين أسلحة أثقل وزنًا، أما النساء فيسهل عليهن إخفاء القنابل تحت ملابسهن أكثر من الرجال، ويتظاهرن بأنهن حوامل مثلاً، وهذا تقسيم للعمل بناءً على الجنس. كما أن الحزام الناسف الذي يرتديه المهاجمون الانتحاريون، والذي أتقن قادة حركة تحرير نمور التاميل صنعه بمرور السنين، كان في الأصل مصممًا خصيصًا للجسم الأنثوي"[47].

هــذه الفقرة من كتاب رويتر عــن التفجيريات الانتحاريات توجه تحليل الطرق المعقدة والمتناقضــة التي يعمل بها الجسد الأنثوي، والأمومي تحديدًا، في المخيلة الغربية. أولاً من الجدير بالذكر أن رويتر يقدم تكهنات دونما مثال علــى أن النســاء يسهل عليهــن إخفاء القنابل تحت ملابسهن أكثر من الرجال ويتظاهرن بأنهن حوامل. ودونما دليل على رأيه (وهو غريب في سياق عرضه المفصــل بعيــدًا عن هذه النقطــة)، يتخيل رويــتر الجسم المفترض أن يبدو حاملاً لجنين أكثر الأجسام الانتحارية فاعلية.

هــذه الصورة لأجساد الحوامل التي تتحول إلى أسلحة قاتلة، تستحضر شبــح القوة الخطــيرة الغامضة التي لجسم الأم على الحيــاة... والموت. فإذا ذكرنا ما يقوله رويتر من أن الحزام الناسف صمم أصلاً على الجسد الأنثوي، المجنــد بوصفــه "دمًا جديدًا"، فهل نبالــغ إذا استدعينا أنماطًا أخرى من الأحزمــة الأنثوية المرتبطة "بدم جديد" مثل الأحزمة الصحية. وإذا تذكرنا مجاز الدم، فهل نفترض أن مرونة أجساد النساء هي ما تجعلها أصلح في دور "مفجرات الجسد" كما تسميهن أدريانا كافاريرو؟ إن مناقشة رويتر للسيولة الأكــبر التــي تتمتع بها أجساد النساء، حيث يمكــن أن يتغير شكلها في الحمل مما يسمح باستخدام ملابس فضفاضة يمكن أن تخفي الأسلحة، تقدم دليلاً جديدًا على تصور السيولة في الجسد الأنثوي.

وفي سيــاق الثورة الجزائريــة ضد الاحتلال الفرنســي، يصف الطبيب النفسي فرانز فانون تلــك الطبيعة المتغيرة لأجساد النساء وملابسهن أيضًا، بأنها تصبح مفيدة لأعمال الحرب والعنف. ففي "رفع النقاب عن الجزائر" يحلــل فانون كيف تخلع النساء الحجــاب وترتديه حتى يسهــل عليهن المرور

بالأسلحة من نقاط التفتيش[48]. ويصف كيف يؤثر تغير ملابس الجزائريات في رؤيتهن لأجسادهن وحركات عضلاتهن، أو ما يسميه "منظومتهن الجسدية". معنى ذلك أن الخبرة الحياتية لهؤلاء النساء، وإحساسهن بعملية التجسد يتغير بتغير ما يلبسن. ومثل عرض رويتر للتفجيريات الانتحاريات، يشير تحليل فانون أيضًا إلى وجود شيء موروث في أجساد النساء يجعلها طيعة ومرنة، وهو ما يسميه "غرائز" الجزائريات، مع ما تنطوي عليه التسمية من إشكالية.

إن هدفي من استحضار وصف فانون أجسادَ النساء المسلحات مع وصف رويتر هو إظهار أن أجساد النساء توصف بأنها مرنة ومتغيرة إلى درجة تحسم أمر استخدامها كأسلحة. في أعلى درجاتها تصور النساء على أنهن حيوانات تشبه الحرباء، يستطعن (غريزيًّا) أن يغيرن أجسامهن بهدف التضليل، وبهدف إخفاء الخطر الكامن تحت ملابسهن. وهكذا يختزل الجسد كله في سوائل جسدية، أبرزها الدم، حتى إن سوائل الجسم هذه هي ما يمثل الأجساد الأنثوية نفسها. وكما بينت كافاريرو وغيرها من فلاسفة النسوية فإن "الجسد المطرود من السياسة جسد أنثوي" يصور على أنه سائل وغير متسق وغير عقلاني[49]. ولكن، مرة أخرى، هذه السيولة المتعلقة بأجساد النساء تسبب لنا القلق ليس لأنها مرتبطة بالطبيعة، بل لأنها غير قابلة للاحتواء. فالسوائل توحي باللزوجة والفوضى وغياب الشكل، وهي أشياء تغرق أي محاولة لاحتوائها داخل فئة محدودة مثل الطبيعة أو الثقافة. فالجسم الأنثوي المصور سائلاً يفيض من الطبيعة على الثقافة، وهذه الحالة اللزجة هي مصدر القلق، وهي ما يجعلها تبدو خطيرة وغير ملائمة، فالأجسام السائلة لا تنتمي انتماءً حقيقيًّا للطبيعة أو للثقافة، كما أن تحديها هذا التمييز هو الذي يجعلها غريبة.

النسوية الانتقائية

يدعــي رويتر أيضًا أن زيادة الفدائيــات - الانتحاريات بين نمور التاميل هي نتيجة تحرر التاميليات، وليس نتيجة إيمان بالنسوية الغربية. وربما يميز في ذلــك بين أشكال من النسوية خاصــة بالتاميليات وأخرى غربية. وعلى كل حــال فإن خلاصاته عن دور تحــرر المرأة والنسوية غــير واضحة.. فالنسوية فيمــا يبدو تحتل مكانًا غير محدد في عرضــه للتفجيريات الانتحاريات، حتى عندمــا تكون مســاواة النساء - حقــوق الرجال نفسهــا وواجباتهم - في هذا العرض هي المسؤولة صراحة عن زيادة مشاركة النسـاء.

وكمــا رأينا، فإن ياسر عرفات يعمــد إلى استثارة خطاب مساواة المرأة ليشجــع النســاء على الاشــتراك في العنف. ومثــل ما سمي بالمســاواة في حق الاعتــداء الذي مارستــه جنديات في أبي غريب، فــإن الانتحاريات قد أشعلن جــدلاً نسويًّــا بين الفلسطينيــين حول مسألــة إمكانية أن "تقفــز النساء على الحواجز المجتمعيــة لتنضم إلى صفوف التفجيريــين الانتحاريين[50]" حسب كلام الصحفــي. وكما هو حــال المناظــرات النسوية التي أشعلتهــا صور أبي غريــب، فإن تكييــف خطاب المساواة بحيــث يبرر مشاركة النســاء في العنف والحرب، ولا سيما في أشكاله الانتحارية، لا يشير فحسب إلى سيولة الخطاب بــل أيضًا إلى مشــكلات موروثة في خطاب المساواة كمــا يستخدمه النسويات والآباء المحافظون الذين يشنون الحروب.

إذا كانــت مجــازات النساء والطبيعــة الجنسية الأنثويــة التي تصورها مصــدر خطــر، وذلك المزج القاتل بــين الصنعة والطبيعة ليــس بجديد، فإن تكييف خطاب المساواة قــد أُستخدم قرونًا لتبرير العمل العسكري والاحتلال الاستعمــاري، ولا يزال يستخــدم من قِبل الحكومات الغربيــة عندما يلائمها

تبرير إرسال "مقاتلي الحرية" "لتحرير" مجتمعات موصومة بالتخلف بسبب معاملتها للنساء. ويمكننا إلقاء اللوم على النسوية بسبب النساء المعتديات في أبي غريب واستخدامها في الوقت نفسه لتبرير غزو أفغانستان لتحرير النساء. تدور تبريرات الولايات المتحدة في غزو العراق وغزو أفغانستان خاصة حول ما سمته الباحثة الأدبية جاياتري سبيفاك الخطاب الإمبريالي الغربي عن "إنقاذ النساء السمر من الرجال السمر"[51].

صار الاستخدام الانتقائي للنسوية والحرص على النساء أمرًا أساسًا في الخطابات الإمبريالية. فعلى سبيل المثال، في نهاية القرن التاسع عشر أنشأ اللورد كرومر، القنصل العام البريطاني في مصر، اتحاد الرجال لمعارضة حق الانتخاب للنساء في إنجلترا، وفي الوقت نفسه كان يستخدم مقولات عن قهر النساء لتبرير احتلال مصر[52]. وفي خمسينيات القرن العشرين، كان قدر كبير من الخطاب المستخدم لتبرير الحكم الاستعماري الفرنسي في الجزائر منصبًّا على محنة المرأة الجزائرية التي كان الحجاب رمزًا لقهرها[53]. وقد رأينا اهتمامًا مماثلًا بالحجاب في وسائل الإعلام الحديثة، عندما استخدم لتبرير العمل العسكري في أفغانستان عندما صار الرداء الكاسي "البوركا" والحجاب أبرز علامات قهر النساء. امتلأت وسائل الإعلام بالمقالات التي تشير إلى الغزو الأمريكي كأنه تحرير "للأفغانيات عن طريق "نزع حجابهن". وتحدث الرئيس بوش عن تحرير "النساء المحجبات"[54]. وسأضيف المزيد عن الهوس "بنزع حجاب المسلمات في الفصل الآتي[55].

في أول خطاب إذاعي لها بعد الحملة العسكرية، استخدمت السيدة الأولى لورا بوش الأفغانيات لتبرير الغزو بقولها: "بفضل مكاسبنا العسكرية الأخيرة في جزء كبير من أفغانستان، لم تعد النساء سجينات في بيوتهن...

فالحرب على الإرهاب هي أيضًا حرب من أجل حقوق النساء وكرامتهن"[56]. وقد ردد الرئيس بوش هذا الموقف في خطاب حالة الاتحاد لعام 2002م: "آخر لقاء لنا في هذه الغرفة كانت أمهات أفغانستان وبناتها أسيرات في بيوتهن ممنوعات من العمل أو الذهاب إلى المدرسة، أما اليوم فالنساء في حرية". (لاحظ أن بوش يشير إلى أمهات أفغانستان وبناتها ليس فقط ليستميل الأسر، بل ليربط بين أفغانستان نفسها والنساء أو البنات)[57]. وتربط مقالة في سان فرانسيسكو كرونيكل بين أفغانستان نفسها والنساء: "تخرج النساء من الظلال، وكذلك ستخرج أفغانستان"[58].

الخلاصة: أن استيعاب خطاب حقوق النساء ومساواتهن باسم العنف - على أيدي المسيحيين المحافظين كما يمثلهم آل بوش، والمسلمين المحافظين كما يمثلهم شيوخ حركة الجهاد الإسلامي، الذين يدعمون الاستشهاديات - يدل على أن الكفاح من أجل حقوق النساء والمساواة كفاحٌ جدلي ومادي معًا. نفهم من ذلك، كما قال نسويات كثيرات: إن الاكتفاء بالحشد الجدلي للحقوق والمساواة فقط لا يمكن أن يفسر الاختلافات الاجتماعية التاريخية أو المادية التي تحكم، إن لم تهيمن على حياتنا، والأهم من ذلك، معنى تلك الحياة. وكما سنرى في الفصل الأخير، من اللازم للنساء أن يكن قادرات على إبداع معانٍ كثيرة لحياتهن خارج الأعراف الذكورية التي تواصل ربط النساء والحبس والموت، وإلا ستختزل حرية النساء في مجرد حريتهن في قتل أنفسهن.

الجميلة تروِّض الوحش

حين كنا مذهولين من صور الانتحاريات المراهقات والنساء المعتديات في أبي غريب، كانت جيسيكا لينتش أشد المحاربات المراهقات جذبًا لقلوب

الأمريكيين؛ فقصتها ليست قصة هجوم بل دفاع عن النفس ومعاناة ونجاة. في أول الأمر قدمت وسائل الإعلام لينتش في صورة «رامبو أنثوي في سن المراهقة» حاربت الأعداء فأطلقت النار حتى نفدت ذخيرتها، وعلى الرغم من إصابات الرصاص دخلت في معركة بالسكين قبل أن تمسك بها القوات العراقية. أما الآن فتغيرت قصتها إلى حد أننا نعرف الآن أن الأطباء العراقيين أنقذوا حياتها وعاملوها بعطف وليس كأسيرة حرب، بعد إصابتها بجروح من اصطدام سيارة همفي. فلم تطلق نارًا من بندقية، ولا طعنت أي عراقي، ولم تصبها أي جروح من طلقات نارية أو نالها اعتداء من قبل العراقيين.

وعلى الرغم من تغير الرواية، يُحتفى بجيسيكا كأنها بطلة؛ لأنها فيما يبدو تمثل خير الأنوثة الأمريكية، أيًّا كانت هذه الأنوثة الأمريكية. فقد تحولت إلى أحد اختبارات رورشاخ(*) يقيس مثُلنا المتعلقة بالأنوثة وقوة البنات. وهي "أميرة" و"سيدة في محنة"، وهي "رامبو أنثى" مراهقة تسقط بسلاحها أي رجل في طريقها، وهي الفتاة الريفية الساذجة التي نشأت في وادٍ صغير في فيرجينيا الغربية، وأصدقاؤها بالمراسلة مجموعة من أطفال الحضانة، وهي "ملكة اللطف"، و"الفتاة المسترجلة الفوضوية" التي تعلمت طرق الحياة في الغابة ومصارعة الحياة من أخيها وأبيها المتحيزين لجنسهما. وفوق كل شيء هي "فتاة قوية من سلالة أمريكية أصيلة" و"محاربة شقراء جميلة" عانت من أجلنا ولا تريد منا سوى أن نعترف بأنها "جندية أيضًا"[59].

يقول المؤرخ العسكري جون أ. لين "هناك نقلة غريبة؛ فإننا نريد خوض الحروب ولكننا لا نريد أن يموت أحد من الآخرين. وعلى ذلك فالجندية لينتش بطلة على الرغم من أنها لا تفعل الكثير، فقد عانت من أجلنا"[60].

---

* إشارة إلى الفوط الصحية النسائية التي تستعمل في فترة الدورة الشهرية واستعمال دم الحيض في عمليات الاستجواب. (المترجم).

بتعبير آخر، هي البطلة المثالية؛ لأنها امرأة تعاني، وهي مثال التضحية بالنفس والمعاناة الأنثوية، مثل مريم العذراء التي تعاني من أجلنا. فهي رمز ألمنا، وليس من قبيل المصادفة أن ترتبط هذه الصورة ارتباطًا وثيقًا بكونها امرأة. وبتحديد أكبر، فهي تُقدر وتُحترم؛ لأنها قضت ثمانية أيام في مستشفى عراقي؛ لأنها فيما يبدو فتاة بيضاء جميلة صغيرة بريئة، كالفتاة التي تعيش في البيت المجاور. أما شوشانا جونسون، وهي امرأة أمريكية سوداء أسرت في العملية نفسها، وقضت واحدًا وعشرين يومًا في سجون عديدة وتعرضت لسوء المعاملة، فإنها تبقى في الظل. إن رد جيسيكا على منقذيها من تحت أغطية السرير - "أنا جندية أمريكية أيضًا" عندما أخبروها أنهم جنود أمريكيون جاءوا لحمايتها وإعادتها إلى الوطن، هذا الرد يمثل الصورة العكسية للارتباك الذي حدث في أثناء عملية إنقاذ شوشانا جونسون، عندما لم يصدقها الجنود في أول الأمر أنها واحدة منهم، وأمروها بالنزول أرضًا مع الأسرى العراقيين.

لقد صارت جيسيكا لينتش، وشوشانا جونسون بدرجة أقل، جزءًا من الحملة الإعلامية العسكرية. فقد استعملت الصحافة والبنتاجون، سواء بسواء، قصة لينتش ليست فقط لضمان الدعم الشعبي للحزب، بل أيضًا لتحميس القوات على الأرض، فطبقًا لرواية ريك براج، كاتب سيرة لينتش، فإن شائعات أسر جيسيكا وتعذيبها جعلت الأمريكيين "راغبين في القتل" و"فخورين" بفعل ذلك (61). وحسب كلام أحد صحفي النيويورك تايمز: "عندما تورطت القوات الأمريكية في أول أيام الحرب، كانت - جيسيكا - بشيرًا بتحول عسكري كبير. فهي رامبو أنثى في التاسعة عشرة من عمرها، حاولت شق طريقها بالنار لتفلت من براثن الأعداء، وتقتل كل رجل وقف

في طريقها"[62]. وقد تبين أن هذه التقارير كاذبة، كما عادت مجازات الأسلحة والدروع البشرية والحروب الدعائية للظهور في الصحافة: فقد بدأ الصحفيون يصورون لينتش وعملية إنقاذها الدرامية "بالأسلحة" في "حرب" البنتاجون "الدعائية" حتى تبث ثقة الأمريكيين بعسكرييهم.

تقول المؤرخة ميلاني ماكليستر: إن الجندية لينتش استخدمتها وسائل الإعلام الإخبارية استخدامًا "ما كان قط" ليحدث لرجل، بوصفها ضحيةً وبطلة. فقد وصفت بالمقاتلة حتى الموت، وصورت على أنها شابة جميلة ومن ثَمَّ ضعيفة[63]. وتنبه ماكليستر إلى أن أوصاف شجاعتها نفسها تؤنثها. فمثلاً علق السيناتور بات روبرتس بقوله: "نحن نتحدث عن الجسارة" وهو مصطلح – spunk – لم يكن ليستخدم لوصف جندي ذكر. وتخلص ماكليستر إلى أن "قصص عملية إنقاذ لينتش صورتها ضمنًا أو صراحة مثل النهاية الكلاسيكية السعيدة لقصة أَسْر كلاسيكية أمريكية. إذ لم تعطنا أسابيع الحرب الأولى صورًا كثيرة لعراقيين يرحبون بإنقاذهم على يد محررين أمريكيين كما توقعنا، فإن صورة إنقاذ امرأة أمريكية شقراء تكون ثاني أفضل شيء يؤمل"[64] كما تصفها بأنها كالسلاح الدفاعي بالنسبة لصدام والبنتاجون معًا.

وترى ريك براج أن لينتش ظلت حية لقيمتها "الدعائية" لصدام حسين: "كانت جندية أمريكية شقراء جميلة وستبدو لافتة في التليفزيون، لو بقي صدام في السلطة مدة كافية ليستخدمها كدعاية"[65]. وتدعي براج أن ميليشيا صدام حسين الفيدرالية استخدمت لينتش "درعًا بشريًا"، واستخدمت المستشفى الذي كانت لينتش محتجزة فيه مرفقًا آمنًا لعلمها أن "الأمريكيين لن يقصفوا مستشفى به جندية أمريكية ترقد بلا حيلة في فراشها... فقد كانت أكثر من مجرد أسيرة حرب، كانت درعًا بشريًا"[66].

ليست براج الوحيدة التي تصف استخدام النساء بأنهن أدوات دفاعية حربية، فالصحفي نيكولاس كريستوف أيضًا يصف النساء بالأسلحة الدفاعية، أو الدروع البشرية التي استخدمت إستراتيجيًّا في العراق فيقول: "في العالم الإسلامي تجعل قيم الفروسية أشد المقاتلين تعطشًا للدماء يترددون في قتل الجنديات أو نسفهن عند نقاط التفتيش. ولهذا السبب تحديدًا، طلبت من امرأة أن تجلس إلى جواري في المقعد الأمامي حين كنت أقود سيارتي في أحد الطرق السريعة الخطرة في العراق على أساس أن يتردد القناصة المرتبكون في إطلاق النار". وفي المقال نفسه وإضافة إلى استخدام النساء دروعًا بشرية، يفصل كريستوف الطرق التي تفيد فيها النساء في دول إسلامية كالعراق كجزء من الإستراتيجية العسكرية[67]. نرى هنا أنه إضافة إلى تصوير النساء على أنهن أسلحة حربية هجومية في حالات أبي غريب وجوانتانامو والاستشهاديات، فإنه يمكن تصويرهن بأنهن أسلحة حربية دفاعية لحماية الرجال. إذ يقال لنا: إن من يوصفون بأشد المقاتلين تعطشًا للدماء "سيرتبكون" لمجرد وجود النساء.

تطورت قصة لينتش من قصة رامبو مراهقة إلى قصة فتاة مجروحة عديمة الحيلة أنقذها العراقيون لأنها شقراء وجميلة. ويصنع أحد الصحفيين الموقف كالآتي: "شعر طبيب عراقي بالأسف من أجل جيسيكا، حتى إنه خاطر بحياته ليساعد على إنقاذها، وعلى الأرجح أن ذلك ما كان ليحدث لو كانت جندي مارينز أشعرَ سيئَ الرائحة"[68]. أو حسب كلام أخيها: "انظروا إلى ذلك الوجه، من يقاوم الوقوع في حب ذلك الوجه؟"[69] يمكننا القول: إن قصة جيسيكا لينتش صارت جزءًا مما تسميه راي تشو "متلازمة كنج كونج" حيث تروض الجميلة الوحش، وحيث يقع أشد الناس تعطشًا للدماء

في حب امرأة بيضاء مليحة الوجه[70]. وكما تقول تشو: "ولأنها نفسها ضحية للقهر الذكوري... تصير المرأة البيضاء مِفصلة قصة التقدم، بين العقل الذرائعي المستنير والهمجية" الملصقة بالعالم الثالث. "المرأة البيضاء هي ما "ينتجه" الرجل الأبيض وينجذب إليه الوحش"[71]. وبالنظر إلى مكانة البطولة التي تحظاها حاليًا، في زحام الوثائقيات التليفزيونية والكتب التي تتناولها، فإننا نرى أن "المتمردين المتوحشين الأعداء" وأطباءهم لم يكونوا وحدهم من وقعوا في حب المرأة البيضاء عديمة الحيلة، فقد تكالب الشعب الأمريكي على قصتها يلتهمها التهامًا بحلوها ومرها، كأنها مسكن لآلام جروح الحرب أو الذنب الاستعماري.

تربط ماكليستر مجازًا تاريخيًّا يشبه "متلازمة كنج كونج" بقصة إنقاذ لينتش، فتقول: إن الضجة الإعلامية حول إنقاذ لينتش جزء لا يتجزأ من حكايات عمرها مئات السنين عن أسر النساء وإنقاذهن، فالأسير في هذه القصص (فرد عادي بريء، غالبًا ما يكون امرأة) يجسد شعبًا يتهدده خطر خارجي. والأسيرة تواجه أخطارًا وتتمسك بإيمانها، وبذلك تصير رمزًا يمثل الهوية الوطنية الطاهرة ذاتها"[72]. وهذا وصف دقيق صحيح للدور الذي لعبته قصة إنقاذ لينتش في مخيلة الأمة. فقد تمثل الأمريكيون براءتها وصلابتها معًا، وهما الصفتان اللتان تبلورا وامتزجا بعد 11 سبتمبر، عندما تبنى الأمريكيون شخصية الضحية البريء، والمنتقم صاحب الحق في آن واحد (وسنعود لهذه التركيبة من البراءة وروح القتال في الفصل الرابع). تصف ماكليستر كيف تدور قصص الإنقاذ عبر القرون حول نساء بريئات طاهرات، أظهرن شجاعة أمام آسريهن الكفرة الهمجيين. وتخلص إلى أنه "في النهاية، تشير القصص إلى أن الله يحمي الأمة الفاضلة كما أنقذ بناته البريئات"[73]. فصفات البراءة والجرح الممزوجة بالجسارة والثبات،

Obeikandl.com

وهـي الصفات التي ارتبطت بالشابة جيسيـكا لينتش صارت تجسيدًا لذهنية "الشجاعة في مواجهة الخطر" الأمريكية بعد 11/9. إضافة إلى ذلك، فهذه التركيبة الفاضلة من البراءة والشجاعة صارت تبريرًا للحرب نفسها – فهي – جيسيكا – تستحق القتال من أجلها. وكما توضح براج، ألهمت قصص لينتش الجنـود للمخاطرة بحياتهم. فقد ملكت قصة إنقاذ لينتش على الأمة خيالها وهـي تدخل حربًا جديـدة، وكما تقول ماكليستر كان ذلـك؛ لأن "الأمريكيين هُيِّئـوا لتوقع قصة إنقاذ – ليس فقط لأن رئيسنا قال لنا: إننا سننقذ العراق، وننقـذ أنفسنـا، بل لأن قرنـين من ثقافتنـا وأكثر جعلت من تحريـر الأسرى مجازًا يعبر عن الصلاح الأمريكي"[74].

أشد الأسلحة الحديثة تأثيرًا في الترسانة الغربية

سـواء كانت النساء فرادى أو ممثـلات عن كل الأمريكيات أو المسلمات، بطـلات أو كباش فداء، ضحايا أو معتديات مضطهدات أو نسويات منتقمات، فإنهـن دائمًا عنصـر مركزي في التركيبـات الجدلية التي تـدور حول العمل العسكـري الأخير في الشـرق الأوسط. ففـي كل ما لمست من حـالات بإيجاز في هـذا الفصل، صـورت النسـاء إما كأسلحة حربيـة دفاعية هجومية، وليس كغيرها من الأسلحة الحربية، بل بوصفها أشد الأسلحة خطرًا وأمضاها. وفي سياق هذا الخطاب يمكن للمرأة أن تكسر أشد الرجال ورعًا بسلاح الجنس؛ فشعرهـا المعقوص كذيـل الحصان، وابتسامتهـا الحلوة يمكـن أن تستخدم أسلحـةً فتاكـةً، وبمـا لديها مـن مفاتن في ضعفهـا ووجها المليـح، يمكنها أن تخضع أشد الأشرار تعطشًا للدماء وكسب قلب الصديق والعدو سواء بسواء.

تبلـور كلمات كاتب العمود الصحفي نيكولاس كريستوف خطاب النساء سلاحًـا فتقول: "كانت أول مـرة أرى الرجال العراقيين في حالة رعب تام من

القوات الأمريكية البريطانية في البصرة، عندما رأيت جمعًا من الرجال شلتهم الرهبة يحملقون في نموذج لأشد الأسلحة الحديثة فتكًا في الترسانة الغربية. كان اسمها كلير، في يدها بندقية آلية، وفي خوذتها زهرة"[75]. لقد كان العرف الشائع أن تسمى القنابل والقاذفات بأسماء النساء، فالطائرة التي ألقت القنبلة الذرية التي أنهت الحرب العالمية الثانية كانت على اسم القاذفة السينمائية في هوليوود ريتا هيوارث في أحد أدوار الأنثى الفتاكة الشهيرة "جيلدا". والآن فإن أشد الأسلحة الحديثة فتكًا في الترسانة الغربية اسمها كلير. فقد اتضح أن السلاح السري للحرب الحديثة امرأة تمسك بندقية وزهرة. وهي تحتل مكانًا في مخيلتنا لا يختلف كثيرًا عن الأنثى الفتاكة، التي تضع زهرة في شعرها ومسدسًا في كيس نقودها وتستدرج الرجال إلى حتفهم بسحرها. فهي نفسها زهرة قاتلة... وقد تكون جزءًا من جيش من الورود. فلا عجب أن تستمر النساء في احتلال المكان الذي جعلناه لهن بجدلنا الفكري، ولكن في صور أكثر مباشرة وصراحة. وفي أشد الحالات مباشرة وحرّفية تصير النساء أسلحة تنفجر فعلاً، تصبح قنبلة الجمال المجازية قنبلة حقيقية.

obeikandl.com